مشاكلنا الادبية الحاضرة

وصلتها بالادب الغربي

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

- ١ -

القديم والجديد — الوحدة في الشعر العربي القديم

توطئة

مضى زمنٌ كانَ يعتقد فيه جمهور العرب ، بكل سذاجة واخلاص ، ان لا بلاغة خارج لغتهم ، « سيدة اللغات واشرفهن مكاناً واحسنهن وضعاً » ؛ وان لا فصاحة « للاعاجم الطمطمانيين » ، وان لا ادب يستحق الذكر الّا « لابناء الضاد » . وانقضى عصرٌ كانَ يتساءل فيه ادباء العرب ، بكل جدّ ورزانة ، هل في الامكان وجود شعر اعجمي يضاهي شعرهم جزالةً وفصاحة؟ . . وكاد يضمحلّ عهدٌ يدعي فيه نقدة العرب ، بكل ايمان وجرأة ، ان آدابهم اغنى الآداب جمعاء ، وان لغتهم بحر خضم عظيم تصبّ فيه سائر اللغات . . . . فاصبحنا اليوم واذا بالاديب الحقيقي يترك هذه القوالب التقليدية للشعراء يرتّون على نظمها قرائحهم الجامدة اذا ما اعوزتهم الموضوعات ، وللخطباء يقرعون بها المنابر في الاحتفالات فيسترقون التصفيق من « حاملي لواء اللغة ورافعي منارها » . يترك كل ذلك لمستغليه من غارّين ومغرورين ، ويميل الى درس الآداب درساً موضوعياً يترفّع عن التعصب والانتقاص ، ويجتهد في الوصول الى الانصاف على قدر الامكان ، فينيل كل

ذي حقّ حقّه دون زيادة ولا نقصان. وهو ، اذا فاضل بين ادب وادب ، ولغة ولغــة ، محّص وقابل ووازن ، فاعطى مــا للعرب للعرب ، وما للاجانب للاجانب.

على اننا نرى بعض ادباء العصر ، في سعيهم المشكور للتخلّص من تلك الاحكام السابقة ، يقعون في النقطة المعاكسة ، فــلا يرون شيئاً صالحاً عنــد العرب ، ولا شيئاً فاسداً عند غيرهم . تلك شريعــة ردّ الفعل تنقلهم من تطرّف الاقدمين السيّء العاقبة الى تطرّف حديث قد يكون اسوأ مغبّة واوخم نتائج . فلا يندر ان نراهم ينصحون ادباء العربية بالانصراف عن فنون ادبهم من قديم وحديث الى النقل والتعريب والسير على اساليب الغرب . وهم في دعوتهم هذه لا يقفون عند حدّ ، ولا يأخذون باحتياط ، ولا يهتمّون بما عساه يفيد وبما عساه يضرّ من تلك الآداب الغربية عنّا . بل يكتفون بان يقابلوا بين الادب الغربي وبين ما عرفوه من ادب العرب — وقد يكون ما عرفوه قليل الخطر ضئيل القيمة — فيحكمون على الاول بالجمال والكمال وعلى الثاني بالقبح والنقص ، يحكمون على الاول بالابتكار والحركة ، وعلى الثاني بالتقليد والجمود . فيحملون على ما في ادبنا من اساليب ، دون تمييز ؛ ويأخذون بما في ادب الغرب من طرق ، دون تحفّظ كذلك. ومما يؤسف له ان اكثر ادبائنا هؤلاء مخلصو العقيدة ، غُيُر على مصلحة اللغة . على ان الغيرة والاخلاص لا يكفيان ، ولم تكن النيّة الحسنة وحدها لتُصلح من ادب او تُجدّد من لغة.

وقد دفع افتتان هذه الفئة بتقليد الادب الغربي منــاوئيهم من ارباب المذهب الاول الى الثبات في مواقفهم والجمود في مراكزهم، خوفاً من هــذه الحملة التي تصوّروها مدبّرة مسيّرة على الادب العربي . فكان من ذلك ان مضى كل فريق في آرائه وآثاره ، يعدل حيناً ويتطرّف احياناً. وتزيد الشقة ، على كل حال ، بعداً وخلافاً. الى ان افقنا ، واذا في ادبنا مشاكل عدّة منها ما يمسّ موضوعات التفكير والتأليف، ومنها ما يمسّ طرق التعبير واساليب الاداء ؛ منها ما كان قديماً فزاد تعقيداً والتباساً ، ومنها ما نشأ حديثاً فاضاف الى مــا تقدم صعوبةً واشكالاً .

هذا ومعلوم ان مجالنا اليوم لأضيق من ان يتسع لذكر تلك المشاكل جميعها. فنترك جانباً كل ما يمتّ بصلة الى موضوعات الايجاد واساليب التأليف مما يُعرَف بالادب الانشائي او « بالادب » بحصر المعنى . ونكتفي بما يمسّ النقد الادبي ، واسلوب البحث في تلك الآثار الادبية. ونكتفي اليوم من هذا ايضاً بمظهرين : اولهما مشكل عتيق زادته الصلة بادب الغرب تعقيداً والتباساً ، اعني به النزاع بين القديم والجديد . وثانيهما مشكل حديث تولّد عن المقابلة بين ادبنا وادب الغرب ، وهو الوحدة في الشعر العربي القديم.

القديم والجديد

ان النزاع بين القديم والجديد عريق في القدم . فهو النزاع التقليدي بين الماضي والحاضر ، وبين الحاضر والمستقبل. بين الشيوخ والشبّان ، وبين الآباء وابنائهم ، في طرق العيش واستخدام مرافق الحياة . وكذلك في النظر الى مظاهر الهيئة الاجتماعية ، والادب منها . وان يكن هذا النزاع لم يظهر شديداً في عصور ادبنا الاولى ، فلأن الشرقي ، وخصوصاً السامي ، مفطور على التقليد ، يصعب عليه ان يترك سبيلًا مطروقاً اختطه جدوده وسهّله آباؤه الى الاندفاع في سبيل لا يعرف اين ينتهي . وعليه فلم يشعر بحاجة الى السير على اسلوب غير الذي سار عليه سلفاؤه . وهو اذا اتى الجديد ، فانه يأتي عمله إمّا تقليداً لأمر خارجي رآه ، فتأثر به ، فتبعه كما كان يتبع غيره ، او إجابةً لداعٍ عنصري غريب قام به احد ادباء العربية من غير العرب . ولهذا نرى ان دعاة التجديد في الاعصر القديمة كانوا من غير العنصر العربي ، كأبي نُواس وبشّار الفارسيَّين في محيط الادب ؛ والفارابي التركي في مظاهر الموسيقى ؛ والفارابي ايضاً وابن سينا الفارسي في مجالي الفلسفة واساليب التفكير.

هذا في ما خصّ النزاع بين القديم والجديد على الاطلاق . اما نزاع ادباء عصرنا فهو مبنيّ ايضاً على التقليد . . . فبينا يقلّد انصار القديم او المحافظين طريقة القدماء من العرب ، يقلّد دعاة الجديد او المجدّدين طريقة الغربيين ؛ على الرغم من ان هذه الطريقة ، في حدّ ذاتها ، قديمة في الادب الذي اقتبست

منه. وليس فيها من الجدّة الّا انها جديدة في الادب العربي في نظرة المحافظين، وفي نظر المجدّدين ايضاً، اذا ما قارنوا — وقد فعلوا — بينها وبين ما يرونه من الاساليب في الادب الغربي. واذاً فالجدّة هنا امر نسبي يخاف منه بعض مناصري الادب القديم فيحاربونه تجديداً مضراً، ويؤخذ به بعض دعاة الجديد فيبشرون بـه تجديداً نافعاً. وقد لا يكون بين اكثر المحاربين والمبشّرين من درس عن تعمّق وتبصّر قيمة هذا «التجديد» بحد نفسه وما يستند اليه من اساليب، وقيمته بالنسبة الى الادب العربي.

وعلينا ان نقف قليلاً امام لفظة التجديد فنجتهد في البحث عمّا تنطوي عليه من المنافع او المضارّ:

لا خلاف في ان المجدّد او الجديد في الامور المادّية يكون غالباً على كثير من المنفعة. فالبيت الجديد افضل من البيت القديم، والمركبة الجديدة احسن من المركبة القديمة، والحكومة الجديدة قد تكون في نظر العامّة انفع من الحكومة القديمة. وما ذلك الّا لأنهم يختبرون منافع الجديد، او هم يتفاءلون بجدّته دون ان يختبروا شيئاً منه. غير انه على الادباء الّا يؤخذوا بهذه المشابهة اللفظية بين بيتٍ من الحجارة جديد وبيت من الشعر جديد. فقد يكون التجدد النافع الجميل اللذيذ في الامور المادّية والمدنية ضاراً قبيحاً تافهاً في امور العلم والادب[1].

ان مبدأ ارخميدس في الانتقال قديم؛ فهل يكفي ان نرى مبدءاً جديداً لنتعلق به تاركين ذاك القديم لكونه قديماً؟ وهندسة اقليدس قديمة؛ فهل تكفي جدة هندسة اينشتين مثلاً لاقرارها محل الاولى؟ وهكذا القول في الشؤون الادبية ايضاً. فان وصف امرئ القيس للفرس قديم؛ فهل يكفي ان تكون قصيدة في الموضوع نفسه جديدة لتصير افضل من ذاك الوصف القديم؟ وكتاب «ايها الولد» للغزالي قديم؛ فهل يكفي ان نرى نصائح والد عصري لولده حتى نفضلها على ذاك الكتاب القديم؟ هذا فضلاً عن ان قصيدة امرئ

---

١) راجع في هذا الصدد ملاحظة محمد احمد الغمراوي: النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي، ص ٢٠-٢١

القيس كانت جديدة بالنسبة الى ما تقدمها ، وكتاب « ايها الولد » كان جديداً بالنسبة الى ما سبقه . ومن البديهي اننا لا نعني بذلك الجدّة في تاريخ الظهور او العمر ، بل الجدّة في القيمة الادبيـة من ابتكار الموضوع وعرض المعاني واسلوب التعبير ، والّا لما كان من معنى لبرهاننا ، اذ لا يبرهن الانسان عن ان الاول سبق الثاني والثاني سبق الثالث . . .

هكذا نفهم القِدَم والجدّة ؛ وهكذا فهمها ادباؤنا المتقدّمون . فقال ابن رشيق : « كل قديم من الشعراء فهو مُحدثٌ في زمانه بالاضافة الى من كان قبله . »[1] وقال ابن قُتيبة : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغـة على زمن دون زمن ، ولا خصّ قوماً دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبـاده في كل دهر ؛ وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره . »[2]

فاذا اقررنا نسبيّة الجديـد والقديم ، والوهم المأخوذ بـه العامّة وبعض الادباء ، اذ يقارنون بين المرافق المدنيّة والامور الادبية ، فيلصقون ، خطأً او عن غير قصد ، النفع بالجديد والضرر بالقديم ؛ فاننا ننتقل الى ما اثّرت في ادبنا نظرية التجديد المزعومة ، وما جرّت اليه من مقارنات بين الادب العربي والادب الغربي لم يتوحّد فيها الموضوع ففسدت النتائج .

اول ما أُخذ به المجدّدون انهم رأوا خلافـاً بين ادب الغرب وادبنا ، فراحوا ينعون على ادباء عصرنا التقليد ويدفعونهم الى التجديد . وما تجديدهم ، كما قدمنا ، سوى تقليد ، لا تقليد الاقدمين من العرب ، بل تقليد الاجانب . واذاً فهم متفقون والمحافظين روحاً وطريقـةً ، وان اختلفوا موضوعاً . ولا يستنتج من هذا اننا من اعداء التجديد . لا ! ولكننا من اعداء استعمال هذه الكلمات التي تُطلق جزافاً دون ان تدلّ على شيء واضح مقرّر ، في اذهان « القدماء » ولا في اذهان « المجدّدين » ، ومن الصعب ان تـدلّ على شيء واضح مقرّر ، وهي على ما اشرنا اليه من النسبـيّة والتقلقل . . .

اما وقـد رددنا نظرية « التجديد » العصري الى اصلها من تأثير الادب

---

١) ابن رشيق : العمدة – في مقالات علم الادب ٢ : ٢١٤
٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء – في مقالات علم الادب ٢ : ٢١٥

الغربي ، فيمكننا ان نتخطّى الى ظاهرة ثانية لهذا التأثير أخذ بها عدد من النقّاد ، واستندوا الى التجديد ايضاً ، فكان لهم آراء تمسّ الوحدة في الشعر العربي القديم.

الوحدة في الشعر العربي القديم

اطلع بعض ادبائنا على ما في الادب الغربي من وحدة في التأليف ، متماسكة الاجزاء جليّة المظهر ، بارزة بوحدة الموضوع ، ووحدة التنسيق ، ووحدة التعبير . فشعروا بروعة الجمال في ذلك ، وما الجمال الّا تناسق الاجزاء واتحادها في تنوّعها ، وراحوا يقابلون بين هذه الوحدات الواضحة البارزة على اكمل ما يكون وما في شعرنا القديم من اضطراب بدا لهم بيّناً ظاهراً . فحكموا على الشعر العربي القديم بعدم الوحدة ، وقالوا يجب ان نتركه ونجدّد

اما دعوتهم الى التجديد ، اي الى نهج طريقة في الشعر العربي تتصف بوحدة تامة على نحو ما حدّدناه ، فأمر ممدوح يستحقّون عليه كل ثناء . واما اطلاقهم الحكم على الشعر العربي القديم بعدم الوحدة فمجازفة تنكرها الرزانة والتثبت . بل هو حكم جائر مبني على فساد في المقارنة ولد فساداً في النتيجة . قارنوا بين مظهرين مختلفين لبيئتين متباينتين فوجب ، ولا بدّ ، ان يؤدّي ذلك الى نتيجة متقلقلة مضطربة . اخذوا من جهة تأليف « مؤلّف » سار على قوانين انشائية مقرّرة ، فولّد رائعةً تطابق في جميع اجزائها ما اثبته علماء الادب عن وحدة التأليف ، فكان لنا قطعة فنية كأندروماك راسين ، او بحيرة لامرتين ، او مثل من امثال لافونتين او مقطع من مقاطع سوللي پرودوم ؛ واخذوا من جهة اخرى زفرة « شاعر » لم يكن على شيء من الثقافة الكتابية تأثّر بمنظر اطلال تركها الحبيب ، فانشد قطعة ادبية لا تقلّ روعةً عما تقدم ذكره من آثار الادب الغربي ، وان كانت لا تطابق ما عرفناه بوحدة التأليف . وقد ندعو هذه القطعة معلّقة امرئ القيس او معلّقة طرفة او غير ذلك من الشعر الجاهلي.

اذاً فساد النتيجة في كون الادب الغربي ذا وحدة يجب الاخذ به ، وفي

كون الادب العربي القديم لا وحدة فيه يجب طرحه ، ناتج من فساد المقارنة بين شاعر مثقف « يؤلف » وشاعر لا ثقافة له « ينشد ».

لا نكير ان ليس في معلقة امرئ القيس مثلاً وحدة تأليف بالمعنى الذي قدمناه . ولكن لو تعمق في درسها الثائرون على الادب القديم ، لرأوا فيها وحدة حقيقية طبيعية اكثر منها تأليفية ، بديهية اكثر منها صناعية ، وهي وحدة الشعور او وحدة التذكار.

يقف امرؤ القيس ، او غير امرئ القيس ، على رسوم واطلال تدفعه الى البكاء اذ يتذكر من كان فيها من الاحبة ولا غرابة في ان تذكار الاحبة المنبعث عن مشهد الاطلال يدفعه الى تذكر ما كان يقضيه من « الايام الصالحة » مع اصحاب تلك المنازل المهجورة . وتذكار تلك الايام يدفعه الى وصف ما كان يقوم به فيها من الصيد لارضاء حبيبته وصواحبها . واي غرابة في ان وصف الصيد في يوم ماطر كثير الصعوبات — وهو اعلق بالذاكرة من يوم صيد لا صعوبات فيه — يدفعه الى وصف المطر ووصف الجواد !.. وفي كل ذلك وحدة شعورية او تذكارية يلمسها كل من تعمق في درس اكثر المعلقات وما اليها من الشعر الجاهلي « المطبوع » ، وان كانت لا تطابق الوحدة المعروفة في الادب الغربي . فهذه وحدة موضوعية (objective) تختص بالتأليف نفسه على الاكثر ؛ وتلك وحدة نفسية داخلية (subjective) تختص بشعور المنشد . وكون القوانين الادبية العصرية لا تشير الى هذه الوحدة الشعورية النفسية لا يكفي لنحكم بعدم وجودها في الادب العربي القديم ، ومن ثم بوجوب اطراح هذا الادب.

اما سبب الخلاف بين الوحدتين فناتج من ان قوانين التأليف وقواعد الانشاء مقررة عند الافرنج ، وان الشاعر منهم يعرفها ، فاذا نظم ، تمتزج شخصية « الشاعر » فيه بشخصية « المؤلف » . ونحن نرى شيئاً من هذه الوحدة الخارجية في الشعر العربي ، حتى القديم منه ، عندما كان شاعرنا « يؤلف » اي عندما كان يعمل في سبيل غاية محدودة «فيصنع» قصيدة غائية ، نشاهد ذلك في رائية الاعشى مستنجداً بشُرَيح بن السموءل ، وفي ميمية الحطيئة واصفاً

الضيافة البدوية ، وما يشبهها . ويجرّنا هذا الى تنويع الشعر القديم بالنظر الى الوحدة فنميّز فيه ثلاثة انواع: اولا الشعر « المطبوع » نقصد به الشعر الذي كان يقوله صاحبه بديهةً اي دون تكلّف، على اثر عامل نفسي دفعه الى اصطياد زفرة لتذكار عهد مضى ، وهو ذو الوحدة الشعورية التي تقدّم ذكرها . يقابله النوع الثاني وهو الشعر « المصنوع » الذي كان « يصنعه » صاحبه لغاية خارجية كالمدح او الهجاء ، او لغاية نفسية كوصف الهوى فيسير بـه على اسلوب من تقدّمه من تعدّد الموضوعات ، فيقلّ فيه الابتكار ويشذّ غالباً عن الوحدة الشعورية ، دون ان يتصل بالوحدة الخارجية البارزة في الموضوع الواحد . حتى اذا توحّدت غاية المؤلف ، كما رأينا في قصيدتي الاعشى والحطيئة ، كان لنا النوع الثالث من الشعر ، وهو مصنوع ايضاً ، ولكنه على قسط وافر من الوحدة العصرية .

* * *

هذه نتيجة فاسدة جرّ اليها فساد المقارنة السطحية بين الادب العربي والادب الغربي . وهذه المقارنة هي اساس الدعوة الى التجديد كما قدّمنا .

وهناك ايضاً عدّة نتائج لهذه المقارنات ، منها ما يمسّ وجود الملاحم عند العرب ، ومنها ما يمسّ وحدة القافية في الشعر العربي . ومنها ما يتعلّق بالشك في الشعر الجاهلي ، ومنها ما يهتمّ بتدريس الشعر الغزلي ، ومنها ما يقرّر وجوب الاخذ بترجمة القطعة الادبية قياساً لقيمتها الفنية . وكلها يكتنفها الفساد من اكثر جهاتها ، مما قد نعود اليه في مستقبل قريب ، ان شاء الله !